بحث عام | قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة | 21 يوليو 2017

أخلاقيات البيئة:
تطورها وتياراتها

جميلة حنيفي
باحثة جزائرية

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017
All rights reserved © 2017

الملخص:

تهتم هذه الورقة البحثية بأخلاقيات البيئة (Environmental Ethics)، وهي: فرع من الأخلاق التطبيقية؛ الذي يعنى بدراسة علاقة الكائن البشري الأخلاقية بالمحيط الطبيعي، وما يحتويه؛ من ماء، وهواء، ومناخ، وأرض، ويعرفها الفيلسوف الإنجليزي (روبن أتفلد Robin Attfield)، قائلًا: «إنها تتمثل في دراسة المسائل والمبادئ المعيارية، المتعلقة بتفاعلات الإنسان مع وسطه الطبيعي، والسياق الذي تندرج فيه، وعواقبها، وهي: فرع مهمٌّ جدًّا من الأخلاق التطبيقية، التي يجب على الأفراد الخواص، والمؤسسات، والحكومات، ضمنيًّا، أن يستوحوا منها، لتحديد وتقويم المبادئ المؤثرة في سياساتهم، وأنماط حياتهم ونشاطاتهم، المتعلقة بمجمل المشاكل البيئية والإيكولوجية»[1].

1 Robin Attfield, éthique de l'environnent et développement durable, in éthiques de l'environnent et politique internationale, France : éditions Unesco, collection éthiques, 2007, p77

مدخل:

تطورت أخلاقيات البيئة، بصفة مبكرة، في الستينات، إلا أنها لم تعرف إلا في منتصف السبعينات من القرن الماضي؛ حيث تنامى مشكل البيئة، وتصاعد الوعي، آنذاك، بآثار التقنية الصناعية، والتطور الاقتصادي والعمراني على البيئة الطبيعية، وحتى على الصحة البشرية نفسها، قد تغيرت علاقات الإنسان بالوسط الطبيعي؛ من موقف المستهلك لثرواتها، من أجل العيش والمحافظة على العيش، إلى موقف المستغل لثرواتها، إلى حد فاق طاقة الطبيعة، ككل، على استيعابه، مما أدى إلى بروز مشاكل عدة، أهمها وأخطرها؛ الاحتباس الحراري، والضوضاء، وتلوث، (pollution) البحار والمحيطات، ونقص طبقة الأوزون، واستنزاف الموارد الطبيعية، وانقراض بعض الأنواع من الحيوانات والنباتات البرية، والتصحر (désertification)، وقطع الأشجار، والحرائق، والنفايات الصناعية والمنزلية.

ومن الواضح للعيان «أن هذه المشاكل، تشكل جزءًا من العلم، ولكن العلم والتكنولوجيا، وحدهما، لا يمكنهما أن يحلاها، إنها تتعلق، في الواقع، بما ينبغي القيام به (faudrait faire)، إنها لا يمكن أن تحل، إلا إذا لجأنا إلى القيم والمبادئ الأخلاقية؛ أي إلى أخلاقيات البيئة»[2]، وهدفها: مراجعة علاقات الإنسان بالمحيط، وبالتحديد، إيقاظ مسؤولية الإنسان الأخلاقية تجاه البيئة، وتحديد واجباته، والاجتهاد من أجل محيط نوعي؛ لأن تحسين نوعية المحيط، معناه؛ تحسين نوعية حياة البشر.

والإشكالية المحورية، التي اهتم بها منظرو أخلاقيات البيئة وفلاسفتها، هي: ما الذي يجعل الإنسان ملتزمًا أخلاقيًا تجاه البيئة؟ ما مبرر المحافظة على التنوع البيئي (biodiversity) والمساحات الخضراء؟ هل السعي الحثيث وراء جني الأرباح وتحقيق المصالح هو المبرر الوحيد لالتزاماتنا البيئية؟ أم أن المسألة تتعلق بكيانات حية داخل البيئة نفسها؛ من حيوانات ونباتات ومجموع النظام البيئي (écosystème) بصرف النظر عن أية منفعة محتملة قريبة أو بعيدة؟ هل توجد حدود لتعاملنا مع البيئة؟

إن هذه الإشكاليات تعد صدى لوجهات النظر المتصارعة حول ما يجب أن تكون عليه علاقة الإنسان بالبيئة؛ والحق، أنه قد انبثقت نظريات عدة، تتفق، عمومًا، على رفض الموقف المحافظ، أو ما يسمى الأخلاقيات المحافظة (Conservative Ethics)؛ التي قامت على مبدأ المركزية البشرية، معتبرة أن الإنسان، بحكم سموه على كل المخلوقات الأخرى الموجودة في الطبيعة؛ فمن حقه استغلال الطبيعة، بوصفها أداة، وفق ما يخدم مصلحته، ويسعى أصحاب هذه النظرية، إلى «تحقيق الاستدامة البيئية، التي تضمن استيفاء الجيل الحالي لحاجاته، دون أن يهدد ذلك قدرة الأجيال القادمة على تلبية حاجياتها، على سبيل المثال؛ عواقب التغير المناخي تشكل تهديدا جوهريًا لحقوق الإنسان الأساسية؛ فكل إنسان له الحق في الحصول على الماء والغذاء والمأوى، ولكن أحوال الطقس الحار الناجمة عن التغير المناخي، تهدد بإتلاف

2 Ibid.

الأراضي الزراعية، ما يؤدي إلى أزمة غذائية، وإلحاق الضرر بموارد المياه، والبلدان الواقعة في جنوب الكرة الأرضية؛ هي الأكثر تأثرًا بالتهديدات الناجمة عن الاحتباس الحراري، لذا؛ فإن السبب الرئيس في وقف الاحتباس الحراري، من هذا المنظور الأخلاقي، هو: حماية الحقوق الأساسية للإنسان، والحفاظ على العالم آمنًا للأجيال المستقبلية»[3].

وردّ معظم الدارسين الأزمةَ الإيكولوجية، إلى نزعة التمركز على الذات (anthropocentrisme)؛ التي كرستها، في نظرهم، المسيحية؛ سواء البروتستانتية (Protestantism) أو الرومانية الكاثوليكية (Roman Catholicism)، من بين هؤلاء وأبرزهم: المؤرخ الأمريكي (لين وايت **Lynn Townsend White, Jr 1907-1987**).

في مقاله المشهور: «الجذور التاريخية لأزمتنا البيئية» (The Historical Roots of Our Ecologic Crisi - 1967م) رأى وايت أن الموقف الاستغلالي (exploitative attitude) تجاه الطبيعة، قد دفعت إليه المسيحية، وهي في نظره، المسؤول المباشر عن الأزمة البيئية الحالية؛ بل إنها «تتحمل أكبر ذنب» (greatburden of guilt a)، ذلك؛ لأن ما يفعله البشر ببيئتهم، تصرفاتهم وسلوكهم إزاءها، متوقف على ما يعتقدونه عن أنفسهم في علاقاتهم بالأشياء؛ أي اعتقاداتهم الدينية على وجه التحديد؛ فهي وحدها، في نظره، تحدد نوعية سلوك البشر تجاه البيئة، وتعاملهم معها، وإذا كان الأمر كذلك؛ فماذا تقول المسيحية للإنسان عن علاقته بالمحيط؟ للإجابة عن هذا السؤال، يعود وايت إلى سفر التكوين، وإلى قصة الخلق (Genesis)، تحديدًا الآيتين السادسة والعشرون والسابعة والعشرون:

«نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا، فَيَتَسَلَّطُونَ عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ، وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ، وَعَلَى كُلِّ الأَرْضِ، وَعَلَى جَمِيعِ الدَّبَّابَاتِ الَّتِي تَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ».

«خَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ. عَلَى صُورَةِ اللهِ خَلَقَهُ. ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ».

في هذين العددين، يظهر الإنسان سيدًا على باقي المخلوقات؛ لأن الرب خلقه على صورته، ودعاه إلى استغلال الطبيعة لأغراضه الخاصة، والطبيعة لم توجد إلا لتكون في خدمته؛ فتلك مشيئة الرب، وتكون المسيحية، بهذه الصورة، قد وفرت الأسس النفسية للإبداع التقني في نظر وايت.

إن وايت: أول مفكر غربي أمريكي ربط بين المسيحية والتقنية، واهتم بفحص دور التقنية في العصور الوسطى؛ التي تعد، في نظره، فترة حاسمة في تكوين العلم والتقنية الغربية وتفوقهما؛ حيث يقول: «إن

3 Isabel Schatzschneider, Environmental, Ethics, and, Islam, incilecenter.org/app/media/2496, p2.

زعامة الغرب في كل من التقنية والعلم، أقدم مما يسمى الثورة الصناعية للقرن السابع عشر، أو ما يسمى؛ الثورة الصناعية للقرن الثامن عشر»[4].

ويذكر بعض الأمثلة على ذلك؛ ففي بداية القرن الرابع عشر، استعمل الوسيطيون الساعة الميكانيكية للوزن المدفوع (the weight driven mechanical clock)، وقبل ذلك، في نهاية القرن السابع الميلادي، استعمل الفلاح الوسيطي في شمال أوروبا، محراثًا جديدًا يقلب التربة بقوة كبيرة جدًا، ما تطلب ثمانية ثيران لجره، وليس اثنين فقط، فتغيرت علاقة الإنسان بالأرض؛ حيث لم يعد توزيع الأراضي قائمًا على حاجات الأسرة؛ بل على قدرة الآلة على حرث الأرض.

وهكذا، بعد أن كان الإنسان جزءًا من الطبيعة، أصبح مستغلًا لها، لمواردها ولثرواتها، وبرزت ثنائية الإنسان/ الطبيعة؛ بسبب إفراط المسيحية في التركيز على الذات البشرية، وهنا، يقول وايت: «إن العالم لم يشهد دينًا أكثر مركزية من المسيحية، خاصة، في صورتها الغربية»[5]، وهذه المركزية، هي سبب الأزمة البيئية، التي سوف تستمر لا محالة؛ بل سوف تزداد سوءًا، في نظره، حتى ترفض المسلمة المسيحية: «إن الطبيعة إنما وجدت لخدمة الإنسان ليس إلا».

في النهاية يتساءل: ماذا علينا أن نفعل لوضع حد لهذا الدمار البيئي؟ «ما نفعله إزاء البيئة، متوقف على أفكارنا عن علاقة الإنسان بالطبيعة، إن المزيد من العلم والتقنية، لن يحلا الأزمة البيئية الراهنة، حتى نجد دينًا جديدًا، أو نعيد النظر في القديم»[6]، ولما لا نعود إلى القديس الإيطالي، (سان فرانسيس الأسيسي Saint Francis of Assissi / 1181-1226): الذي يعد استثناء العصر الوسيط؛ لأنه «حاول تجريد الإنسان من ملكيته للخلق، بأن أسس ديمقراطية مخلوقات الله جمعاء»[7].

لقد أثار مقال وايت نقاشات كثيرة، وردود فعل مثيرة، من قبل رجال الدين، خاصة، والمهتمين بالمسألة البيئية، والمؤرخين، والفلاسفة الذين تولوا الرد الصارم على ادعاءات لين، رافضين زج المسيحية في مشكلة البيئة، على العكس؛ فهم يرون فيها أفقًا لحل الأزمة؛ فهي عقيدة كلفت البشر بأن يكونوا حراسًا على الطبيعة، وليس هدامين لها أو مستغلين.

من بين هؤلاء: عالم الاجتماع (لويس منكريف Lewis w.Moncrief **The Cultural Basis of our Environmental Crisis 1970**)؛ الذي رفض أطروحة وايت؛ فهو لم ينف أن أفكار الإنسان

4 Lynn White, Jr. The Historical Roots of Our Ecological Crisis, in www.uvm.edu/~gflomenh/ENV.../Lynn-White.pdf, p.2

5 Ibid, p 4.

6 Ibid, p 5.

7 Ibid.

ومعتقداته، هي التي تحدد علاقته بالبيئة، ولكن، كيف نفسر وجود الأزمة في المجتمعات غير المسيحية، أيضًا؛ أي الشرقية منها؛ الإسلامية، والبوذية، والطاوية، والكونفوشية، والهندوسية، وغيرها؛ فهل هي صديقة للبيئة؟ وحتى إذا كانت الاعتقادات الدينية قد أسهمت في المشكل البيئي؛ فإن تأثيرها سوف يكون غير مباشر، وغير مستدل عليه بصفة كافية، كما الحال في الروابط بين المسيحية ونشوء الرأسمالية، إذن؛ فالمسألة فيها تهويل لدور المسيحية[8].

رد منكريف الأزمة البيئية إلى عوامل ثقافية، تتمثل في حدثين تاريخين بارزين أسسا المجتمع الحديث، هما:

أولًا: الثورة الفرنسية وبروز الديمقراطية، أدى إلى إعادة توزيع الموارد والثروات على الناس بتساوٍ أكبر.

ثانيًا: الثورة الصناعية المتولدة عن التطور التقني والعلمي، بدورها، أدت إلى زيادة كبيرة في إنتاج الخيرات والخدمات.

هذان العاملان مهدا الجو لنمو الرأسمالية والتصنيع، وزيادة قدرات الإنتاج، من أجل زيادة الاستهلاك، واستحداث ثروات جديدة؛ فنزح الناس من الأرياف إلى المدن، مما زاد في الطلب على استهلاك الخيرات والموارد، إلى درجة فاقت المخزون الطبيعي للموارد والخيرات الطبيعية، خاصة، بعد ارتفاع نسبة السكان في العالم، وإلى درجة لم تعد الطبيعة قادرة على استيعاب التغير السريع، واحتواء نتائجه، ما يفسر الأزمة البيئية الحالية.

ويتميز الوضع الراهن لعلاقة الإنسان بالبيئة، في نظر منكريف، بمميزات ثلاث هي:

- غياب الاهتمام الأخلاقي بالمحيط، نظرًا إلى طغيان المصلحة الذاتية، التي تسير كل علاقات الناس في المجتمعات الليبرالية؛ فما يهمهم: هو تحقيق المصالح، وجني الأرباح، على حساب ما يمكن أن يحدثه ذلك من أضرار للبيئة.

- عجز المؤسسات الاجتماعية الحالية عن إحداث التغيير النوعي المطلوب؛ فرغم أن الماء والهواء، لا تحدهما حدود خاصة؛ لأنهما يعدان شيئًا مشتركًا بين الشعوب والأمم، إلا أن الموارد والمساحات المشتركة، لا تحظى بالحماية المطلوبة من قبل المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية.

- العلم والتقنية لن يحلا المشكلة.

8 Robin Attfield, Christian Attitudes to Nature, in orca.cf.ac.uk/.../Journal%20History%20Ideas_Christia.., p370

01- المركزية الحيوية (Biocentrism):

بعد الانتقادات التي وجهت إلى نظرية المركزية البشرية، برزت نظرية المركزية الحيوية (Biocentrism)، وهي: «موقف يركز على الحياة (life-centered)، ويرفض الرأي القائل: إن الإنسانية وحدها محور الأخلاق، وينادي بالوضع الأخلاقي (moral standing)، لكل المخلوقات الحية (على الأقل)»[9]، بمعنى؛ أن الحياة كلها كل متناسق ومنسجم، لديها القيمة ذاتها، سواء كانت حياة إنسان، أو حيوان، أو نبات؛ فلكل كائن حي قيمته الجوهرية (intrinsic value)، التي ينبغي وضعها في الحسبان.

ودعا الفيلسوف الأسترالي بيتر سنجر (Peter Singer)؛ فيلسوف المركزية الحيوية، إلى تمديد مبدأ «المساواة في رعاية المصالح»، إلى باقي الأنواع الأخرى؛ فمثلما «لا يجوز لنا استغلال البعض، لأنهم ليسوا أعضاء في جماعتنا، كذلك، لا يحق لنا أن نهمل مصالح البعض الآخر؛ لأنهم أقل ذكاء منا، وعليه، كون الموجودات ليست أعضاء من نوعنا، لا يمنحنا الحق في استغلالهم، كذلك كون الحيوانات الأخرى أقل ذكاء منا، لا يعني إهمال مصالحهم»[10]؛ فكون شخص ما ينتمي إلى النوع البيولوجي نفسه، لا يمنحه أفضلية أخلاقية على سائر الأنواع الأخرى؛ كالحيوانات، والكائنات الحية الأخرى؛ لأن التمييز على أساس النوع، هو نوع من التفرقة العنصرية، ولذا؛ فهو أمر مرفوض من الناحية الأخلاقية.

وهناك مجموعة من النظريات الأساسية، التي تجسد الأخلاقيات المتمركزة حيويًا منها:

- نظرية ألبرت شفايتزر حول تقديس الحياة:

(Albert Schweitzer, The Philosophy of Civilisation Reverence for life).

- نظرية بيتر سنجر حول أخلاقيات تحرير الحيوان

(Peter Singer, Practical Ethics Respect for Sentience).

- نظرية بول تايلور حول أخلاقيات المساواة المتمركزة حيويًا

- (Paul W. Taylor, Respect for Nature: A Theory of Environmental Ethics 1986).

9 RobbinAttfield, Biocentrism, in Ecology In encyclopedia of environmental ethics and philosophy, in www.uky.edu/.../240%20-%20Reading%20-%20**Dee**..., p 97.

10 Peter Singer, [From] **Practical Ethics**, In Reflecting on nature ethics and the environment, in www.ci.uri.edu/.../Williams%20Concern%20Human, p53

- (Robin Attfield, «The Good of the trees» 1981 and The Ethics of Environmental Concern- 1983)

ولكن قبل كل هؤلاء، يرد الباحثون في البيئة جذور أخلاقيات المركزية الحيوية، أو فلسفة البيئة، عمومًا، إلى الأدب الأمريكي، وتحديدًا، جون ميور (John Muir 1838- 1914م)، وألدوليوبولد (Aldo Leopold 1887-1948).

جون ميور: كاتب أمريكي، مناصر للبيئة، ويلقب بأبي المتنزهات الوطنية، ولقد أولى البرية اهتمامًا خاصًا، في جل مؤلفاته، منها؛ «متنزهاتنا الوطنية» (Our National Parks 1901)؛ حيث يقول: «من الممتع في أيامنا هذه، مشاهدة الميل إلى النزهة في البرية؛ آلاف من الناس المتعبين ذوي الأعصاب المتوترة، والتحضر المفرط، بدؤوا يكتشفون أن الذهاب إلى الجبال، يعد بمثابة ذهاب إلى البيت، وأن البرية ضرورة، كما أن المتنزهات الجبلية والمحميات مفيدة، ليس فقط، كمنابع للخشب وري الأنهار؛ بل كمنابع للحياة أيضًا»[11].

أما ألدوليوبولد؛ فهو فيلسوف وأديب أمريكي، أيضًا، ويعد أب الحياة البرية، كتب عن أخلاق الأرض (The Land Ethic)؛ حيث دعا إلى ضرورة توسيع مجال الأخلاق، ليشمل علاقة الإنسان بالبيئة، ويقول بهذا الشأن: "حتى الآن، لا توجد أية أخلاقيات، تتناول علاقة الإنسان بالأرض، والحيوانات، والنباتات، التي تنمو عليها، ما تزال العلاقة بالأرض اقتصادية بحتة، تترتب عليها امتيازات، فقط، وليس التزامات"[12].

إن توسيع مجال الأخلاق إلى الكائنات الحية الأخرى، إمكانية قابلة للتطور (evolutionary possibility)، وضرورة (ecological necessity)، وهي تقوم على مفهوم الجماعة (The Community Concept)؛ حيث إن كانت الأخلاق تقوم على فكرة؛ أن الفرد عضو في جماعة مترابطة الأطراف، من جهة توجيه انفعالاته وغرائزه إلى التنافس من أجل الظفر بمكان فيها، ومن جهة أخرى؛ توجيه أخلاقه إلى التعاون؛ "فإن أخلاقيات الأرض، ببساطة، توسع حدود الجماعة، لتشمل الأتربة، والمياه، والنباتات، والحيوانات، أو بصفة كلية: الأرض"[13]، وهذا يتطلب حب الأرض. ويضيف قائلًا: «من غير المعقول، بالنسبة إليّ، إمكانية أن توجد علاقة أخلاقية بالأرض، من دون حب، واحترام، وإعجاب بالأرض، واحترام عالي لقيمتها، أقصد بالقيمة، طبعًا؛ شيئًا أوسع بكثير من مجرد قيمة اقتصادية، أعني؛ القيمة بالمعنى الفلسفي»[14].

11 John Muir, Our National Parks, in Chapter I The Wild Parks and Forest Reservations of the. West, www.sie - raclub.org/john_muir_exhibit

12 Aldo LeopoldFrom **A Sand County Almanac**, in faculty.ithaca.edu/mismith/docs/.../leopold.pdf, p12

13 Ibid.

14 Ibid, p 17.

وحدد ليوبولد ثلاثة أسباب مهمة، منعت تطور أخلاق الأرض، وهي:

أولًا: النظامين التربوي والاقتصادي، لم ينميا الوعي بالأرض، ما جعل الإنسان الحديث منفصلًا عن الأرض؛ فهي لا تعني له سوى فضاء يتخلل المدن، يجد لذته وضالته في البدائل الصناعية للخشب، والجلود، والصوف، وغيرها من المنتجات الطبيعية البرية؛ فهي تناسبه أفضل من النسخ الأصلية، والأرض، في نظره؛ شيء «متجاوز» (outgrown).

ثانيًا: ما تزال الأرض بالنسبة إلى الفلاح خصمًا، أو ربة العمل التي تبقيه عبدًا، كان ينبغي لمكننة الزراعة، من الناحية النظرية، أن تقطع أغلال المزارعين، ولكن، هل تفعل ذلك حقًّا؟ هذا موضع نقاش.

ثالثًا: الفهم الإيكولوجي للأرض، يتطلب فهم الإيكولوجيا، وهذه مهمة التربية، إلا أن التربية لا تقوم بدورها؛ "فالتعليم العالي يتجنب، عن قصد، المفاهيم الإيكولوجية، إن التعليم البيئي نادر"[15].

باختصار: «إن مفتاح تطور أخلاق الأرض، هو ببساطة، الإقلاع عن التفكير في الاستعمال اللائق للأرض، كما لو كانت مجرد مشكلة اقتصادية، وتفحص كل مسألة في حدود ما هو صواب، أخلاقيًا وإستيتيقيًا، وكذلك، ما هو أداة اقتصادية، ويكون الشيء صائبًا، عندما يميل إلى المحافظة على تكامل الجماعة الحيوية، واستقرارها، وجمالها، ويكون خاطئًا، عندما يميل إلى خلاف ذلك»[16]. (A thing is right when it tends to preserve the integrity, stability, and beauty of the biotic community. It is wrong when it tends otherwise).

هذا وما ساعد على التعامل مع مشكلة البيئة، بوصفها مشكلة فلسفية، هو: بروز حركة البيئة في الولايات المتحدة الأمريكية، خاصة مع (ريتشل كارسن Rachel Carson)؛ كاتبة وعالمة بيولوجية أمريكية، صاحبة الربيع الصامت (SilentSpring /1962م)؛ المؤلف الذي أثار انتباه الرأي العام الأمريكي، حول مشكلة البيئة، كما أسس لعلم البيئة ذاته (Ecology)، وهي كلمة لم تكن مألوفة آنذاك، كما سمح بسن تشريعات خاصة بالمحافظة على البيئة، وقد سعت كارسن، في هذا المؤلف، جاهدة وبلا كلل، إلى فضح الموقف اللامسؤول للمجتمع الصناعي، ولأرباب الصناعة الكيميائية على وجه الخصوص.

عقب نهاية الخمسينات، شهدت الولايات المتحدة تطورًا، مذهلًا وسريعًا، في مجال الصناعة الكيميائية، وانتشر استعمال ثنائي كلور، وثنائي الفينيل - ثلاثي كلور والإيثان (DDT dichloro-diphenyl-trichloro-ethane)، في الفلاحة إضافة، إلى مواد أخرى سامة، ذات مفعول طويل الأمد، مثل؛ المبيدات الحشرية ومبيدات الأعشاب (pesticides and herbicides)، التي تؤدي إلى تدمير كامل للحياة البرية،

15 Ibid, p18.

16 Ibid.

وتهدد حتى الحياة البشرية، وبطبيعة الحال؛ لم يكن نشر الكتاب سهلًا، أبدًا، نظرًا إلى ما يحمله من اتهام مباشر لأرباب الصناعة الكيميائية آنذاك، ولوكالات الإشهار، إلا أن ريتشل كارسن لم يهدأ لها بال؛ فهي لم تجد السلام، حتى فضحت سياساتهم التخريبية للبيئة ككل.

إن كل إنسان عرضة للاتصال بالمواد الكيميائية الخطرة؛ فهي قد دخلت واستقرت في أجساد الأسماك، والطيور، والزواحف، والحيوانات الأليفة والبرية، لتنتقل إلى الإنسان، كبيرًا أو صغيرًا، من خلال حليب الأم ذاته، كل هذا بسبب الارتفاع المفاجئ، والنمو المذهل لصناعة المواد الكيميائية «هذه الصناعة؛ هي بنت الحرب العالمية الثانية (This industry is a child of the Second World War)، لقد اكتسب الإنسان قوة جديدة، مكنته من تغيير الغطاء النباتي والحياة الحيوانية، تغيرًا عميقًا، وخلال الربع الأخير من القرن الماضي، لم تزد هذه القوة في درجة إزعاجها فقط؛ بل غيرت من طابعها، والأكثر قلقًا من كل اعتداءات الإنسان على المحيط؛ هو تلوث الهواء، والماء، والأنهار، والبحر، بمواد خطيرة وفتاكة، ورش الأراضي الزراعية والغابات والحدائق بالكيميائيات؛ التي تثبت طويلًا داخل الأرض، وتدخل في العضويات الحية، ما يجعلها ذات قدرة هائلة على إلحاق الضرر، وربما تسببت في انقراض الجنس البشري»[17].

إننا في عصر يهيمن فيه التصنيع، ورغم أن الكثير من المعرفة البيئية متاحة اليوم، ولكننا لا نستعمله، ولا نوليه الأهمية المطلوبة، وتقول رايتشل كارسن: نحن «نكوّن علماء البيئة في جامعاتنا؛ بل إننا نوظفهم في وكالاتنا الحكومية، لكننا قليلًا ما نأخذ بنصائحهم، ونسمح لمطر الموت الكيميائي أن يهطل علينا، كما لو أننا لا نملك بديلًا، في حين أن لدينا الكثير، وعبقريتنا يمكن قريبًا أن تكتشف الكثير، لو منحت الفرصة»[18]، وحتمًا سوف تحملنا الأجيال المستقبلية المسؤولية، بسبب افتقارنا للحذر المطلوب، ولعدم الاهتمام بتكامل العالم الطبيعي؛ فالوعي بطبيعة التهديد وحجمه، لا يزال محدودًا جدًا، ودليل ذلك؛ أن كل واحد من المختصين، ينظر إلى المشكل من وجهة نظره الخاصة؛ فهو إما غير واع، أو متعصب لوجهة نظره، مما يفتح الباب لتهدئة الجماهير المحتجة على النتائج الضارة لاستخدام المبيدات، بالتأكيدات والوعود الكاذبة.

02- الإيكولوجية العميقة (Deep Ecology):

أول من صاغ مصطلح الإيكولوجيا العميقة، وأسس النظرية ككل، هو: الفيلسوف المجري (أرني نيس Arne Naess)، وذلك عام 1973م، «ويتقاسم أتباع حركة الإيكولوجيا العميقة، كراهية نظام القيمة؛ المركز على الإنسان في صميم الثقافة الصناعية الأوروبية والشمال أمريكية، ويرون أن الفلسفة

17 Rachel Carson, **Silent Spring**, in https://archive.org/.../fp_Silent_Spring-Rachel_Carso..., chapter 3 Elexirs of Death.

18 Ibid.

البيئية، لا بد أن تعترف بالقيم المتضمنة موضوعيًا في الطبيعة، باستقلال عن الرغبات، والمطالب، والحاجات الإنسانية»[19].

في مقاله "الإيكولوجيا الضحلة والإيكولوجيا العميقة" (The Shallow and the Deep ecology)، ميّز نيس بين حركتين في الإيكولوجيا؛ حركة الإيكولوجيا الضحلة (shallowecology): التي تركز على مسائل البيئة المتعلقة بالتلوث، وتأثيراته السلبية في الحياة البشرية، عمومًا، ويقول في ذلك: «تكافح حركة الإيكولوجيا الضحلة ضد التلوث واستنزاف الموارد، وهدفها المحوري، هو: صحة الناس وثرائهم في الدول المتقدمة»[20].

بينما تقوم حركة الإيكولوجيا العميقة (the deep ecology movement) على ثمانية مبادئ مشتقة من الفلسفة، وليس من الإيكولوجيا أنها مبادئ بيئية فلسفية (ecophilosophical)، وليست إيكولوجية (ecological)، ويوضح نيس أن «(علم البيئة Ecology)؛ علم محدود (limited science)، يستخدم المناهج العلمية. والفلسفة: هي المنتدى الأكثر عمومًا للنقاش حول الأسس، الوصفية والتقريرية، والفلسفة السياسية: هي واحدة من أقسامها الفرعية، ونقصد بـ (ecosophy): فلسفة التناغم أو التوازن البيئي (ecological harmony)، والفلسفة، كنوع من الحكمة صوفيًا، هي مفتوحة معياريًا، إنها، بصراحة، تتضمن كل من المعايير، والقواعد، والمسلمات، وتصريحات ذات القيمة الأولية (value priority announcements)، وفرضيات تخص الوضع في الكون»[21].

هذا، وفي ربيع 1984م، وضع أرني نيس مع الفيلسوف الأمريكي (جورج سيشنز George Sessions)، ثمانية مبادئ، أطلقا عليها اسم «برنامج الإيكولوجيا العميقة»، وتتمثل فيما يأتي:

1. إن رفاهية الحياتين، البشرية وغير البشرية على الأرض، وازدهارهما؛ هو أمر ذو قيمة في حد ذاته، (مرادف: القيمتين الجوهرية والمتأصلة)، وهذه القيم غير مرتبطة باستعمال العالم غير البشري لأغراض بشرية.

2. غنى أشكال الحياة وتنوعها، يسهم في تحقيق هذه القيم، وهذا الثراء والتنوع يشكلان قيمة في حد ذاتهما.

3. ليس للإنسان الحق في تقليل هذا الغنى والتنوع، إلا من أجل تلبية الحاجات البشرية الحيوية.

---

19 David R. Keller, Deep Ecology In encyclopedia of environmental ethics and philosophy, in www.uky.edu/.../240%20-%20Reading%20-%20**Dee**..., p 206.

20 Arne Naess, The shallow and the deep, long-range ecology movement. A summary, in www.ecology.ethz.ch/education/.../Naess_1973, pdf, p 95.

21 Ibid, p 99.

4. إن ازدهار الحياة البشرية والثقافات، يتواءم والانخفاض الجوهري في السكان، كذلك ازدهار الحياة غير الإنسانية، يتطلب مثل هذا الانخفاض.

5. إن التدخل الإنساني الراهن في العالم غير البشري، مبالغ فيه، والوضع يزداد سوءًا بصفة سريعة.

6. إذن، لا بد من تغيير السياسات، وتؤثر هذه السياسات في البنيات القاعدية الاقتصادية، والتقنية، والإيديولوجية، وعليه؛ فالوضع الناتج سوف يكون مختلفًا عن الوضع الراهن بشكل عميق.

7. التغير الإيديولوجي، يتمثل، أساسًا، في تقدير حياة نوعية، كامنة في وضعيات ذات قيمة متأصلة، بدلًا من التمسك بمستوى معيشي أعلى على نحو متزايد.

8. أولئك الذين شاركوا في النقاط المذكورة، لديهم التزام، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، بمحاولة تنفيذ التغييرات الضرورية[22].

ويعتبر نيس أن أخلاق المسؤولية، تتطلب من الإيكولوجيين، أن ينضووا تحت لواء الحركة الإيكولوجية العميقة.

وهناك مجموعة من النظريات الأساسية؛ التي تجسد الإيكولوجيا العميقة؛ منها أخلاقيات احترام الطبيعة لبول تايلور (Paul.W Taylor, The Ethics of respect of nature).

وفهم الإيكولوجيا العميقة، بمعناها الأكاديمي، يتطلب كما ذهب إلى ذلك (دايفيدر كلنر David R. Keller) قراءة أعمال أربعة فلاسفة بيئة: النمساوي أرني نيس (Arne Naess)، الأمريكيين جورج سشنز (Georges Sessions)، ودايفيدرودنبرغ (David Rothenberg)، والأسترالي وارويك فوكس (Warwick fox).

بطبيعة الحال؛ لم تسلم نظرية الإيكولوجيا العميقة من انتقادات الإيكولوجيين الاجتماعيين (Social Ecologists)، والإيكولوجيات النسويات (Ecofeminists)، منها؛ موراييوكتشين: «التي انتقدتها، كونها حولت البشر من كائنات اجتماعية معقدة، إلى أنواع بسيطة، وبمثابة كارثة، تتكاثر وتلتهم موارد الكوكب، كما ترى أن لا تاريخيتها، وعلميتها الحيوانية (zoologization)، منعاها من رؤية الأسباب الثقافية الحقيقية، المسببة لمشاكل البيئة»[23].

22 Isabel Schatzschneider, Environmental, Ethics, and, Islam, p 4.

23 David R. Keller, Deep Ecology, in Encyclopedia of Environmental Ethics and Philosophy, in www.uky.edu/.../240%20-%20Reading%20-%20Dee..., p 209

03- المركزية الكونية (Ecocentrism):

اتجاه نادى به الفيلسوف الإنجليزي جيمس لوفلوك (James Lovelock)؛ الذي عرف بنظريته، المسماة «نظرية قايا» (Gaia Theory)؛ وهو اسم آلهة الأرض، لدى اليونان؛ حيث يرى أن المجال الحيوي (Ecosphere)، بكل مكوناته المادية المتفاعلة؛ من غلاف جوي، وغلاف جليدي، وغلاف مائي، وغلاف صخري، هو: كائن حي يمكنه تنظيم نفسه بنفسه، والتجدد باستمرار؛ فهو يبدع ذاته، ويتكامل بشكل وثيق، لأجل تشكيل نظام التفاعل المعقد للأرض، الذي يسمح بالمحافظة على توازن الظروف المناخية والبيولوجية الكيميائية على الأرض، ما يعني؛ أن العضويات الفردية (organisms)، أو الأنواع (Species)، ليست أكثر أهمية من المجال الحيوي؛ فلا تمييز بين الحياة الحية والمادة غير الحية.

المراجع:

1- Aldo Leopold1- Aldo Leopold, A Sand County Almanac, in faculty.ithaca.edu/mismith/docs/.../leopold. pdf.

2- Arne Naess, The shallow and the deep, long-range ecology movement. A summary, in www.ecology.ethz.ch/education/.../Naess_1973.pdf.

3- David R. Keller, Deep Ecology In encyclopedia of environmental ethics and philosophy, in www.uky.edu/.../240%20-%20Reading%20-%20Dee...

4- Isabel Schatzschneider, Environmental,Ethics,and,Islam,incilecenter.org/app/media/2496.

5- John Muir,Our National Parks, in Chapter I , The Wild Parks and Forest Reservations of the West, www.sierraclub.org/john_muir_exhibit.

6- Lynn White, Jr. The Historical Roots of Our Ecological Crisis, in

www.uvm.edu/~gflomenh/ENV.../Lynn-White.pdf.

7- Peter Singer, [From] Practical Ethics,In Reflecting on nature ethics and the environment, in www.ci.uri.edu/.../Williams%20Concern%20Human.

8- Rachel Carson,Silent Spring, in https: //archive.org/.../fp_Silent_Spring-9- Rachel_Carso..., chapter 3, Elexirs of Death.

9- Robin Attfield, éthique de l'environnent et développement durable, in éthiques de l'environnent et politique internationale, France: éditions Unesco, collection éthiques, 2007.

10- Robin Attfield, Christian Attitudes to Nature, in orca.cf.ac.uk/.../Journal%20History%20 Ideas_Christia..,

11- RobbinAttfield, Biocentrism, in Ecology In encyclopedia of environmental ethics and philosophy, in www.uky.edu/.../240%20-%20Reading%20-%20Dee...

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود

Mominoun Without Borders

للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2017

جميع الحقوق محفوظة © 2017